

حدائق الأفنية الداخلية – الجزء 3

COURTYARD GARDENS

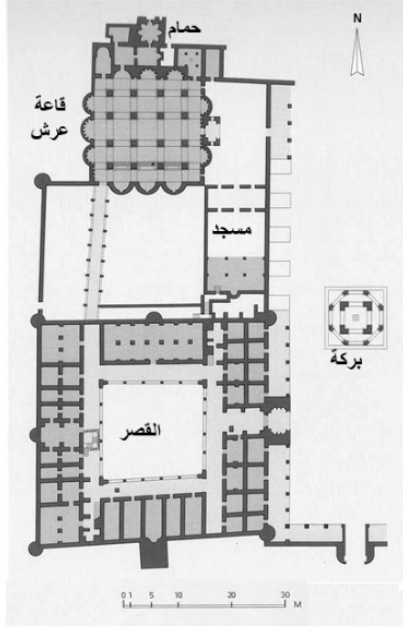
3. حدائق الأفنية الداخلية في القصور

لا تختلف حدائق الأفنية الداخلية في قصور العمارة الإسلامية عن مثيلاتها في البيوت كثيرا. فالقصور هي مبان تضم إلى جانب الفراغات السكنية والإدارية فراغات لتمثيل السلطة الحاكمة وبالتالي لأفنية القصور أيضا وظائف إضافية تتجلى بتمثيل السلطة الحاكمة والاستقبالات الرسمية واستعراض فخامة القصر أثناء المناسبات الرسمية داخل هذه الأفنية. وهي تتميز عن أفنية البيوت بانتظامها واتساعها مما يمنح الفرصة لإعطاء الحدائق داخلها تشكيلا غنيا ومميزا. وهو ما سنستعرضه من خلال أمثلة متأخرة تعود للعمارة العثمانية في سورية في قصر العظم في دمشق ومن ثم سنتعرف على نماذج من حدائق الأفنية في القصور الأندلسية مثل قصر الجعفرية في سرقسطة وقصر إشبيلية وقصر الحمراء وجنة العريف في غرناطة، التي تعود في أصولها إلى ما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. وهنا أيضا لا يمكن معرفة التنسيق الأساسي لجميع هذه الحدائق في زمن نشوئها الأول بسبب التغييرات الكثيرة التي شهدتها، ولكن تصميمها الحالي يسمح بإعطائنا تصورا عنها.

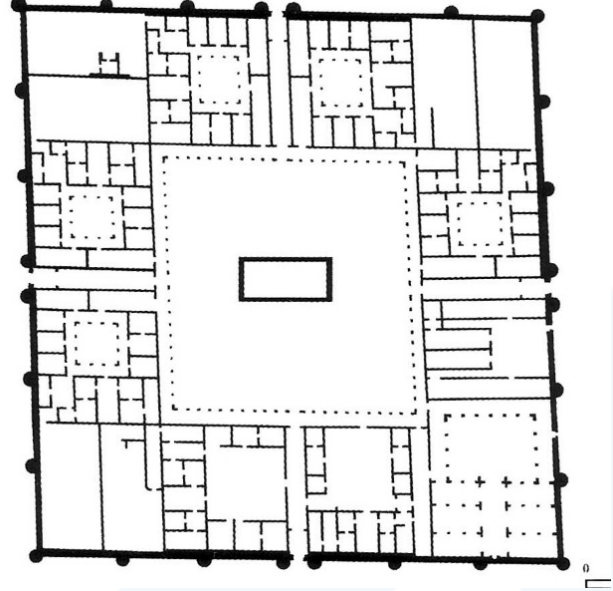
1.3. بدايات حدائق الأفنية الداخلية في القصور الأموية والعباسية

تعود بدايات حدائق الأفنية الداخلية في قصور العمارة الإسلامية إلى أولى القصور التي أنشأها المسلمون وهي القصور التي انتشرت في بادية الشام في الفترة الأموية لتكون مكانا لاستجمام الخليفة ولانطلاق رحلات الصيد وللتواصل مع القبائل في البادية. كل تلك القصور كانت تقوم في منطقة تشمل أراض زراعية وبساتين مسورة تجلب إليها المياه عبر أقنية وخزانات.

القصور الأموية نفسها مثل قصر حرانة وقصر المشتى في الأردن وقصر الحير الغربي والشرقي في سورية وخرية المفجر في فلسطين، كانت مكونة من مجموعة من الفراغات تحيط بفناء داخلي أو مجموعة أفنية حسب مساحة القصر، ولكن لا توجد دلائل تسمح بإعادة تصور لتنسيقها الحدائقي، في حين تشير التنقيبات الأثرية على وجود برك تتوسط بعضها أو شادروان، كما في حديقة خربة المفجر في فلسطين.

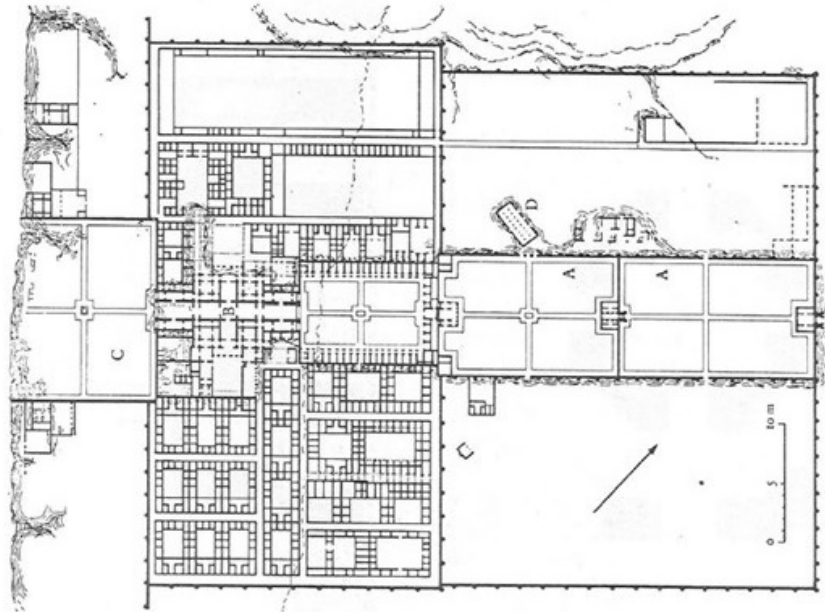


مسقط خربة المفجر في فلسطين



مسقط قصر الحير الشرقي في بادية الشام

أما القصور العباسية في مدينة سامراء فهي الأخرى تتوزع حول أفنية داخلية عديدة وهنا يبدأ التأثر بالحدائق الفارسية، حيث تم اعتماد التصميم الرباعي في قصر بلكوارا في أفنية متعددة على طول المحور المؤدي إلى قاعة العرش.



مسقط قصر بلكوارا في مدينة سامراء العباسية

2.3. قصر العظم في دمشق Azem Palace in Damascus

قصر العظم في دمشق هو من أشهر القصور العثمانية في بلاد الشام، وهو أضخم وأقدم مبنى سكني لا يزال قائما في مدينة دمشق القديمة. بناه أسعد باشا العظم عندما كان واليا على دمشق عام 1156 هـ / 1749 م واستخدم في بنائه وتزيينه مواد بناء تم انتزاعها من بيوت دمشقية كثيرة.



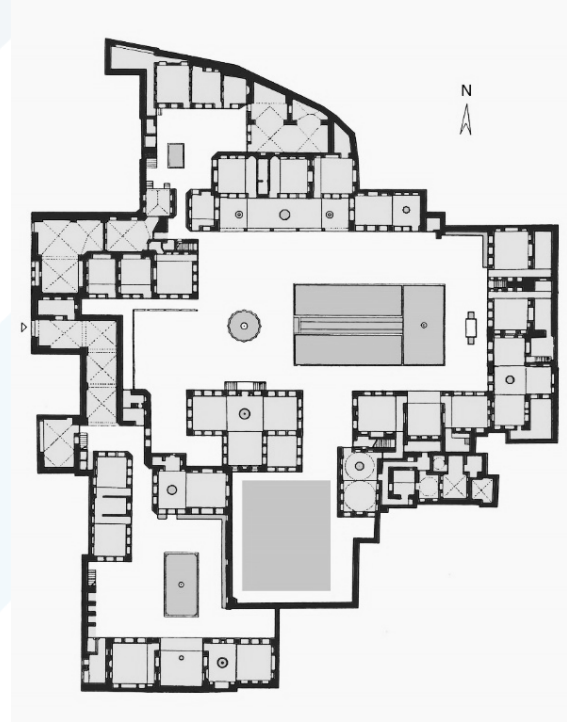
الإيوان الرئيس المفتوح نحو الشمال



البحرة وقناة المياه



القاعة الرئيسة



المسقط



الرواق الواقع شمال الفناء

قصر العظم في دمشق

رغم أهمية المبنى فليس له واجهات خارجية فخمة، فهي فقط جدران مصمتة مغطاة بطبقة من الطينة، فيما عدا البوابة الفخمة الواقعة في جهة الغرب والتي تؤدي عبر دهليز منكسر إلى عدة أفنية. فالقصر يتكون من فناء مخصص للاستقبال والتمثيل الحكومي يعرف بالسلمك وفناء آخر واسع جدا يعرف بالحرملك كان مخصصا لحياة الأسرة ويضم مجموعة من القاعات الفخمة التي كان يمكن استخدامها أيضا للاستقبال. يضاف إليها فناء صغير يضم المطبخ وغرف الخدم يعرف بالخدمك، كما يلحق بالقصر حمام خاص ومساحة مخصصة كبستان في الجهة الجنوبية.

ينفتح في الجهة الجنوبية في كل من الفناءين الرئيسيين إيوان ضخم بارتفاع طابقين يتمحور حوله تشكيل الحديقة داخل الفناء، إذ تقع على محور الإيوان بركة مستطيلة كبيرة ذات عمق قليل مع نافورة في الوسط وتحيط بها أحواض النباتات والأشجار المختلفة.

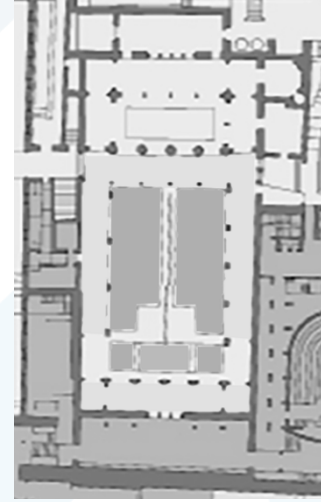
ويتميز الفناء الكبير نتيجة اتساعه بإمكانية زراعة أشجار كبيرة مثل السرو وغيرها مع تخصيص مساحة واسعة وسط الفناء كأحواض للنباتات، التي ترتبط هي الأخرى بالعمارة المحيطة فهي عبارة عن حوض مستطيل محوره يتعامد مع البركة الكبيرة ويتم التأكيد عليه عبر مجرى مائي مع نوافير على الأطراف. هذا المحور ينتهي بصريا في الجهة الغربية ضمن بحرة كبيرة ذات شكل نجمي تم اختيار موقعها على محور أهم قاعة في القصر وهي القاعة التي تقع في الجهة الجنوبية من الفناء بمحاذاة الإيوان ويتم الصعود إليها عبر درجين متقابلين تتقدمهما منصة للجلوس. ويقابل هذه القاعة في الجهة الشمالية من الفناء رواق مكون من خمسة أقواس مدببة يتقدم مجموعة من الغرف، ويتم استخدامه كفراغ مظلل صيفا وكمكان جلوس مشمس شتاء.

3.3. قصر الجعفرية في سرقسطة al-Jaferia Palace in Saragossa

بني قصر الجعفرية من قبل المقتدر بن هود أمير سرقسطة الأندلسية في النصف الثاني من القرن 11هـ/11م. المبنى عبارة عن قصر محصن مزود بمجموعة من الأبراج المربعة والدائرية وتوزع فراغاته الداخلية حول عدة أفنية. استولى عليه ألفونسو الأول ملك الأراغون عام 1118 م وجرت على المبنى إضافات وتعديلات كثيرة عندما كان مقر الملوك الكاثوليكين وفي عام 1593 م، إذ أضيف الخندق المحيط والحدائق الخارجية ليتحول إلى قلعة عسكرية ذات طابع عصر النهضة. ولكن القصر لا زال يمثل عمارة ملوك الطوائف في الأندلس ويعتبر من التراث العالمي. يشغل البرلمان المحلي لولاية أراغون المبنى حاليا.

يشتهر الفناء الأوسط في قصر الجعفرية وهو معروف اليوم بفناء القديسة إيزابيل Patio de Santa Isabel. وهو فناء مستطيل الشكل يمتد من الشمال إلى الجنوب محاط بالأروقة من جميع الجهات (طرأت تعديلات وإضافات على بعضها). يتميز رواق الجهة الجنوبية المكون من ستة أقواس مدببة مفصصة الشكل ومتقاطعة بواجهته الغنية بالنقوش الغائرة وهي محمولة على دعائم محاطة بسويريتين. هذا الرواق يؤدي إلى قاعة عرضية وبشكل نهائية المحور البصري، الذي يتم

التأكيد عليه من خلال تنسيق الفناء الداخلي المقسوم إلى جزأين متناظرين بواسطة ممر مرصوف بالحجارة تتخلله في الوسط قناة مائية رفيعة وقليلة العمق تشكل محور الفناء.



قصر الجعفرية في سرقسطة: مسقط فناء القديسة إيزابيل - لقطة داخلية باتجاه الجنوب

المسطحات النباتية على الجانبين تأخذ شكلاً مستطيلاً يضيق في نهايته الجنوبية ليشكل فسحة صغيرة مبلطة (شكل زاوية قائمة). المسطحات النباتية محاطة بسيج منتظم من نبات البقس ومزروعة بثلاثة من أشجار البرتقال من كل جانب تتوزع بانتظام ضمن أرضية مرصوفة بالحجارة الصغيرة تترك بينها قنوات ري مستقيمة تشكل إطارات مربعة حول الأشجار تزرع بالزهور.

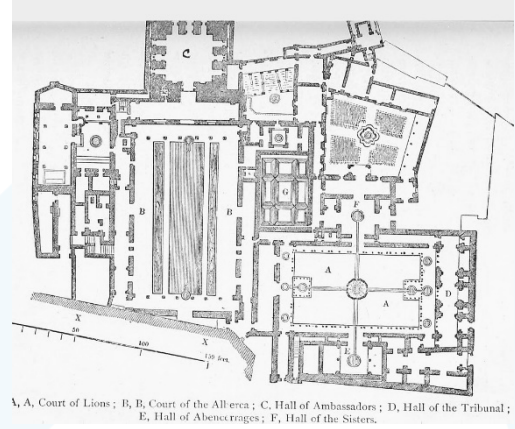
يلفت النظر في الجهة الجنوبية أن قناة المياه المحورية تتدفق من خلال مصب رخامي إلى بركة مستطيلة تقع أدنى من مستوى الفناء بحوالي متر ونصف وبالتالي فهي غير مرئية من الأعلى ولكن يتم الشعور بتأثيرها الصوتي والبيئي. وتفتح القاعتان الواقعتان شمال وجنوب الفناء على الأروقة بأقواس مفصصة متعددة دون وجود حواجز أو أبواب فتصبح الإطلالة المباشرة على الحديقة جزء من تصميم القاعات.

4.3. قصر الحمراء وجنة العريف في غرناطة The Alhambra and the Generalive

قصر الحمراء هو من أشهر مباني العمارة الإسلامية التي يمكن من خلالها التعرف على الحدائق الإسلامية. القصر هو عبارة عن قلعة سكنية أو ما يعرف بالقصبة تتربع على تلة تعلو مدينة غرناطة الأندلسية وكانت تشكل سكناً محصناً لحكام غرناطة من بني الأحمر وحاشيتهم وملجأً لأهالي المدينة في فترة كثر فيها الحروب. ورغم الإضافات اللاحقة والتغييرات التي تعرض لها الموقع لا يزال يعتبر أهم مثال على العمارة الأندلسية المتأخرة في زمن ملوك الطوائف وهو مدرج في التراث العالمي لليونسكو.

قصر الحمراء الممتد بطول 740 م وعرض 220 م يضم قلعة وقصورا ومدينة صغيرة إضافة إلى حدائق شاسعة. ويلحق به قصر صيفي يقع أعلى منه في الجهة الشرقية يعرف بجنة العريف وتحول اسمها بالإسبانية إلى Generalive. بني القصر وحدائقه على مراحل ابتداء من منتصف القرن 13 م ولكنها تركزت بشكل أساسي على امتداد القرن 14 م.

كان الشرط الأساسي لإقامة هذا الصرح مع حدائقه توفر مياه الري اللازمة التي تم استخدامها عبر قنوات من الجبال سيرا نيفادا القريبة ومن ثم تخزينها وتوزيعها بطريقة متقنة تعتمد على الميول الطبيعية للأرض والانخفاض التدريجي، أي أن المياه تسيل في جنة العريف من حديقة إلى أخرى ثم تستمر لتصل إلى قصر الحمراء الواقع أدنى منها.

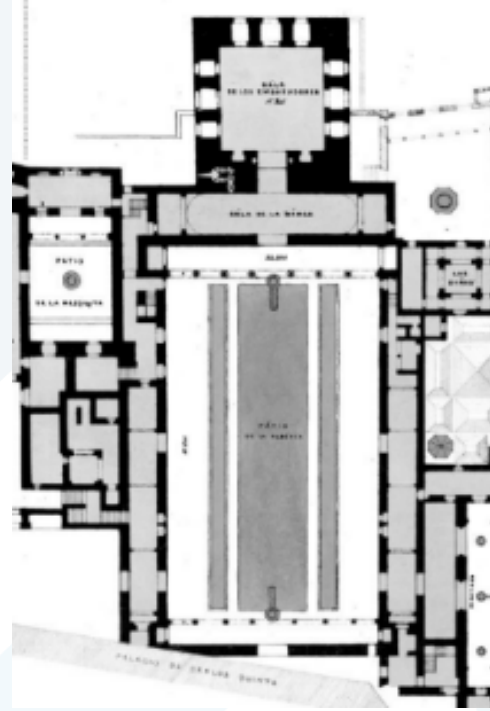


قصر الحمراء في غرناطة

القصر الملكي المعروف بـ Nasirids Palace يضم مجموعة من الأفنية، التي تذكر بعض المصادر أنها كانت ذات استخدامات مختلفة تراعي الخصوصية في المجتمع الإسلامي ولكن دون أن تحددها بالضبط ولكن يمكن توقع ذلك استنادا إلى الفراغات المحيطة بكل منها. فالفناء الكبير المعروف بفناء البركة أو فناء الريحان المؤدي إلى قاعة السفراء هو فناء المخصص لزوار الملك وللمناسبات الرسمية، بينما ترك فناء الأسود للاستخدام الخاص للملك وحاشيته (للرجال) وخصص الفناء الثالث الأكثر انعزالا المعروف بفناء دراكسا للنساء. وسنقوم باستعراض التصميم الحدائقي لكل منها مع إيضاح ارتباطه بالبنية المعمارية المحيطة به مباشرة.

فناء الريحان أو فناء البركة Court of Myrtles

الفناء الريحان هو الفناء الأكبر مساحة في قصر الحمراء وهو فناء مستطيل الشكل ممتد من الشمال إلى الجنوب تقع في نهايته الشمالية قاعة السفراء هي بمثابة قاعة العرش المبنية ضمن برج ضخيم يسطر على الكتلة الخارجية. يتقدم هذه القاعة رواق مكون من سبعة أقواس نصف دائرية ويقابله رواق مماثل في جهة الدخول الجنوبية، بينما تشكل جدران بسيطة قليلة الفتحات جانبي الفناء الطويلين.



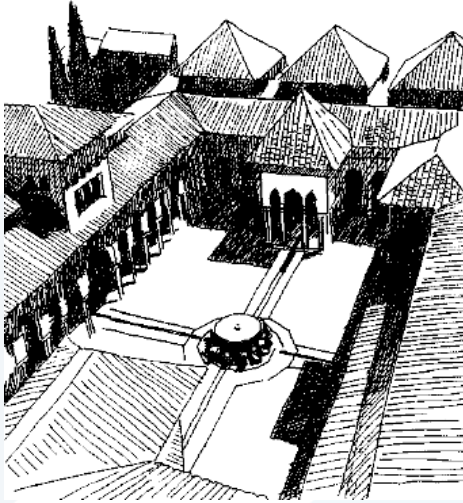
فناء الريحان في قصر الحمراء: مسقط - لقطة داخلية باتجاه الشمال

تعرف هذه الباحة بفناء البركة أو فناء الريحان لأنهما العنصران الأساسيان المستخدمان في تشكيل الحديقة. تصميم الحديقة بسيط ومتناظر نسبة إلى محورها الطولي، الذي يتم التأكيد عليه من خلال البركة الكبيرة المستطيلة الممتدة على كامل طول الفناء ويتم تزويدها بشكل دائم بالمياه عبر نافورتين دائريتين مسطحتين تقعان في نهايتي المحور الطولي وتساهمان في إظهار محاور الدخول. اللافت للنظر استخدام مصبات مياه طويلة تكاد تطفو على سطح الماء، مما يجعل البركة ذات سطح هادئ يشكل مرآة تعكس العمارة المحيطة، رغم حركة المياه الدائمة فيها.

ويحيط بالبركة من الجانبين ممران طوليان محصوران بحوضين ضيقين مزروعين بسياجين من الريحان يمتدان مثل البركة على طول الفناء وينعكسان في الماء. وتحيط بهذا التنسيق ممرات جانبية للحركة تحاذي الواجهتين الشرقية والغربية. ويظهر استخدام الزخارف في الرواقين المطلين على الفناء، فواجهة الأقواس تزدان بزخارف نباتية غائرة. كما تم استخدام الزليج الملون (نوع من الخزف) المكون من أشكال هندسية في تغطية الجزء السفلي من جدران الرواقين، مع اعتماد ألوان يغلب عليها الأخضر والأزرق والأصفر وأحياناً الأحمر بحيث تشكل سطحاً زاهياً يبدو كأنه استمرار للحديقة، وينتهي من الأعلى بزخارف جصية نباتية وخطية.

فناء الأسود Court of the Lions

الفناء الثاني في القصر هو فناء الأسود المعروف بهذه التسمية نسبة إلى النافورة التي تتوسطه. الفناء مستطيل الشكل يمتد من الشرق إلى الغرب وهو محاط من جميع الجهات بالأروقة المكونة من أقواس صغيرة مدببة محمولة على أعمدة رخامية رشيقة. في حين تتركز القاعات الهامة على المحور الشمالي الجنوبي، فقاعة الأختين تقع في الشمال وتقابلها في الجنوب قاعة بني سراج Sala de los Abencerrajes.



فناء الأسود في قصر الحمراء: مسقط - منظور علوي - لقطات داخلية للفناء ونافورة الأسود

تعود أهمية فناء الأسود إلى كونه أقدم مثال لا زال قائماً على حديقة إسلامية ذات تصميم رباعي. فهو يتكون من قناتين مائيتين رفيعتين متعامدتين تلتقيان في مركز الفناء ضمن نافورة الأسود، وتمتدان باتجاه الأروقة لتصب ضمن نوافير دائرية صغيرة غائرة في الأرض، حيث تبرز في كل من الجانبين الشرقي والغربي مقصورة مربعة ذات قبة مقرنصة وسقف

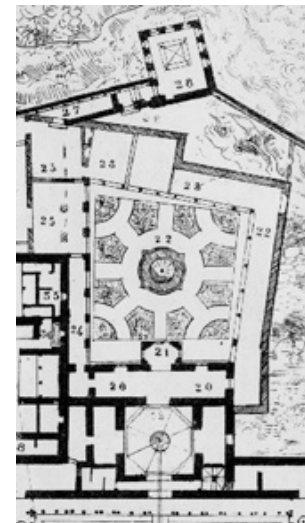
هرمي مغطى بالقرميد، ثم تتابع القنوات لتصل إلى نافورة صغيرة أخرى ضمن الرواق. أما في المحور الشمالي الجنوبي فتستمر قنوات المياه وصولاً إلى نافورة مميزة في كل من القاعتين الشمالية والجنوبية اللتين ترتفعان عن منسوب الفناء عدة درجات. وبالتالي فإن المياه تترقق من هذه النوافير المحيطة عبر القنوات المتعامدة باتجاه نافورة الأسود في مركز الحديقة ممثلة أنهار الجنة الأربعة.

النافورة المركزية نفسها تتكون من اثني عشر أسداً من الرخام الأبيض تحمل حوضاً رخامياً كبيراً وتخرج المياه على شكل نوافير من أفواهاها، وهي ترمز إلى الأبراج الفلكية الإثني عشر والأشهر الإثني عشر التي توجد معاً في وقت واحد في الأخرة وهي تحمل بحراً يمثل خزان مياه الجنة.

ساحة الفناء مبلطة حالياً بالرخام ولكن التنقيبات دلت على أنها كانت تضم أربعة مسطحات خضراء مزروعة ومستواها أدنى من مستوى الممرات والأروقة ولم تتم إعادتها إلى وضعها الأصلي بسبب تأثير عملية الري المستمرة على بنية المبنى، فتم الاكتفاء بزراعة شجرة برتقال واحدة كرمز ضمن كل ربع.

فناء داراكسا La Daraxa Garden

الفناء الثالث في القصر المعروف اليوم بحديقة داراكسا تعرض لكثير من التغييرات اللاحقة، ولكن النافورة المرتفعة الدائرية الشكل التي تتوسطه تعود للفترة الإسلامية، في حين تم تجديد البركة السفلية التي تصب فيها في عصر النهضة. الفناء محاط بالأروقة من ثلاث جهات وهو ذو شكل شبه منحرف تسيطر عليه اليوم أشجار السرو الباسقة، وهو مقسوم حول المركز الدائري بشكل شعاعي إلى أحواض عديدة محاطة بأسيجة من نبات البقس ومزروعة بنباتات وأزهار متنوعة. ولكن لا يمكن الاستدلال على تنسيقها الأصلي.



فناء داراكسا في قصر الحمراء: مسقط - لقطة داخلية تبين النافورة وأحواض النباتات

تطل على هذه الحديقة مقصورة مرتفعة مشهورة تسمى Mirador de Daraxa يتم الوصول إليها من قاعة الأختين وهي تبين الارتباط الوثيق بين تصميم الحديقة والفراغات المطلة عليها في العمارة الإسلامية.

جنة العريف في غرناطة Generalive

بنيت حدائق وأبنية جنة العريف في القرن الثالث عشر لتكون قصرا صيفيا ملائما لملوك بني نصر، بحيث يلجؤون إليها هربا من ازدحام قصر الحمراء ومشاغله. إن موقعها على تلة جعلها تصمم على شكل مدرجات تضم مجموعة من حدائق الألفية مع حدائق أخرى مفتوحة باتجاه الطبيعة المحيطة. ويشتهر في هذا الموقع فناءان يعرفان بفناء الساقية Patio de la Acequia وفناء السلطانة Patio de los Cipreses لكل منهما تنسيق حدائقي مميز.



فناء السلطانة في جنة العريف



فناء الساقية في جنة العريف